

المبحث الثاني

نشأة التفسير وتطوره وتفرع تفسير الأحكام عنه

لقد اهتم المسلمون بتفسير وتبيين كتاب الله اهتماماً بالغاً، وذلك من نزوله حتى عصرنا الحاضر، فمر تفسيره - حتى صار علماً قائماً بذاته - بعدة مراحل أوجزها في الآتي:

التفسير في عهد النبي ﷺ:

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ بلسان عربي مبين، قال الله عز وجل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١). وقال: ﴿وَلَنُزِيلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٢﴾.

وقد تكفل الله عز وجل بحفظه وبيانه إذ يقول: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْفِثْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٣﴾، وكانت مهمة الرسول ﷺ تفسير وتوضيح وبيان ما يشكل على الناس فهمه من دلالة الآيات، إذ معرفة القرآن تفصيلاً وفهم دقائقه أمر غير ميسور لمجرد تلاوة القرآن. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أَفَأَمِنَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا

(١) سورة يوسف (آية ٢).

(٢) سورة الشعراء (الآيات من ١٩٢ إلى ١٩٥).

(٣) سورة القيامة (الآيات ١٧-١٨-١٩).

(٤) سورة النحل (آية ٤٤).

لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، وكان النبي ﷺ يقول: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(٢) أي سنته ﷺ.

وتعد هذه المرحلة من أهم مراحل تفسير القرآن إذ هي مرحلة التشييد والتأسيس، ويعتبر الرسول ﷺ أول مفسر للقرآن، إذ كان عليه السلام يوضح لأصحابه المراد من الآيات بالقول أو بالفعل أو بالتقرير، وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن»^(٣).

التفسير في عهد الصحابة :

اهتم الصحابة رضوان الله عليهم بتحفيظ القرآن وتفسيره، فقد وردت الروايات عن كثير منهم بتفسير القرآن والاهتمام ببيانه وعقد حلقات الدرس لتوضيحه.

قال عبد الله بن مسعود : «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته».

وقال مسروق : «كان عبد الله - يعني ابن مسعود - يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار».

وقال الأعمش عن أبي وائل : «استخلف علي عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة - وفي رواية سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا»^(٤).

(١) سورة النحل (آية ٦٤).

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة، سنن أبي داود (١٠/٥)، الطبعة الأولى، نشر دار الحديث بسوريا.

(٣) تفسير الطبري (١/٣٥)، ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (٩٦).

(٤) تفسير الطبري (١/٣٦).

وقد دعا النبي ﷺ للحبر عبد الله بن عباس حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

وقال عبد الله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس»^(٢). وكان اعتماد الصحابة في التفسير على القرآن الكريم، ثم ما ورد عن النبي ﷺ، ثم ما توصلوا إليه بفهمهم واجتهادهم.

واشتهر بالتفسير جماعة: منهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير^(٣).

وأكثر هؤلاء رواية ابن عباس ثم ابن مسعود ثم علي بن أبي طالب ثم أبي بن كعب.

وهناك أيضاً من تكلم في التفسير غير هؤلاء على اختلاف فيما بينهم قلة وكثرة كأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وأبي هريرة وغيرهم.

والتفسير في هذه المرحلة لم يأخذ طابع التدوين، ولم يتخذ له شكلاً منظماً، وكل ما ورد هو تفسير لآيات متفرقة من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسوره، كما لا يشمل القرآن كله^(٤).

التفسير في عهد التابعين:

بعد أن فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم في حياة

(١) قال ابن حجر عن هذا الحديث: وهذه اللفظة اشتهرت على الألسنة حتى نسبها بعضهم للصحيحين ولم يصب. فتح الباري (٧/٧٨)، وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس (١/٢٦٦-٣١٤-٣٢٨-٣٣٥).

(٢) الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١/٤٠)، وانظر مجمع الزوائد (٩/٢٧٦).

(٣) الإقتان في علوم القرآن (٤/٢٣٣).

(٤) التفسير والمفسرون (١/٩٨)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (٢٣٧).

الرسول ﷺ وأصحابه من بعده، وانتشر علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في شتى أنحاء المعمورة حاملين معهم ما وعوه، من العلم، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فأخذ عن الصحابة كثير من التابعين ونقلوه لمن بعدهم، فتكونت حلقات الدرس في القراءة والتفسير والحديث والفقه... فقامت في هذه الأمصار مدارس علمية أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، واشتهر منها ثلاث مدارس في التفسير هي الآتي:

أ- مدرسة التفسير بمكة:

قامت هذه المدرسة بمكة على يد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث كان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه.

قال ابن تيمية: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد (ت ١٠٣هـ)، وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٥هـ)، وأبي الشعثاء جابر بن زيد (ت ٩٣هـ)، وسعيد بن جبير (ت ٩٤هـ)، وأمثالهم»^(١).

ب - مدرسة التفسير بالمدينة :

قامت هذه المدرسة بالمدينة على يد عدد كبير من الصحابة ممن اشتهر بالتفسير كعمر وعلي وزيد بن ثابت وابن عمر، إلا أن أبي بن كعب يعد من أشهرهم إذ تتلمذ عليه عدد كبير من التابعين كزيد بن أسلم (ت ١٣٦هـ)، وأبي العالية الرياحي (ت ٩٠هـ)، ومحمد بن كعب القرظي (ت ١٠٨هـ)، وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)، وعطاء بن يسار (ت ٩٧هـ)، وغيرهم، وهؤلاء منهم من أخذ عنه مباشرة أو بالواسطة^(٢).

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (٦١).

(٢) التفسير والمفسرون (١/ ١١٤).

ج- مدرسة التفسير بالعراق:

قامت هذه المدرسة بالعراق على يد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة، وقد استقر بالكوفة منذ بعثة عمر رضي الله عنه معلما ووزيرا، فأخذ عنه العراقيون قراءته وتفسيره.

وقد عرف من هذه المدرسة عدد كبير من التابعين أشهرهم: علقمة بن قيس (ت ٦١هـ)، ومسروق بن الأجدع (ت ٦٣هـ)، والأسود بن يزيد النخعي (ت ٦٤هـ)، ومرة الهمزاني (ت ٧٥هـ)، وعامر الشعبي (ت ١٠٥هـ)، والحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ)^(١).

وهناك مدارس أخرى لم تشتهر كمدرسة الشام وعرف منها رجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ). ومدرسة مصر وعرف منها يزيد بن أبي حبيب الأزدي (ت ١٢٨هـ)، ومدرسة اليمن وعرف منها وهب بن مُنْبَه (ت ١١٤هـ).

وبعد : فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين الذين تلقوا علومهم عن الصحابة الكرام. وكانت مصادرهم في التفسير:

- القرآن الكريم.
- ثم السنة النبوية.
- ثم ما رَوَّه عن الصحابة.
- ثم ما فتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله.
- كما كان لمن دخل من أهل الكتاب في الإسلام أثره في النقل عنهم مما جاء في كتبهم كالذي يروى عن عبد الله بن سلام وكعب

(١) التفسير والمفسرون (١/١١٨)، وسفيان الثوري وأثره في التفسير (٢٤٤-٢٤٥).

الأخبار ووهب بن منبه وغيرهم^(١).

٤- التفسير في عصور التدوين:

تبدأ هذه المرحلة في أواخر عهد بني أمية وأول عهد العباسيين وقد خطا التفسير فيها خطأ متعددة، فأول خطوة كانت مع ابتداء تدوين حديث رسول الله ﷺ حيث كانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث وهو غالب ما ألف في التفسير في بداية ذلك العهد.

كما ألف فيه كتب مستقلة عن كتب الحديث ككتاب «تفسير سفيان الثوري» (ت ١٦١هـ) حيث عثر على نسخة خطية منه بالهند وطبع بعناية وتحقيق امتياز علي عرشي. كما عثر على عدة نسخ من تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني.

ويؤيد ثبوت كتب مستقلة في التفسير ما ذكره السيوطي في كتابه «الإتقان» حيث يقول: «ثم بعد هذه الطبقة - يعني طبقة التابعين - ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ)، وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، ويزيد بن هارون (ت ١١٧هـ)، وعبد الرزاق (ت ٢١١هـ)، وآدم بن أبي إياس (ت ٢٢٠هـ)، وإسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ)، وروح بن عباد (ت ٢٠٥هـ)، وعبد بن حميد (ت ٢٤٩هـ)، وسنيد (ت ٢٢٦هـ)، وأبي بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، وآخرين^(٢).

وقال أيضاً الدكتور أبو شهبه: «والظاهر أن هذه التفاسير كانت مستقلة عن الحديث، وأن هذا العصر كانت فيه الطريقتان:

(١) التفسير والمفسرون (١/٩٩).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤/٢٤٢).

- طريقة التأليف في التفسير على أنه جزء من الحديث.

- وطريقة التأليف في التفسير على سبيل الاستقلال^(١).

وقد امتاز هذا التفسير في هذه الخطوة بأخذه مساراً جديداً وهو التدوين والتأليف لعلم التفسير، وهذا التدوين شمل ما روي عن الرسول ﷺ، وأصحابه والتابعين، إلا أنه لم يكن تفسيراً كاملاً للقرآن سورة سورة وآية آية من مبدئه إلى منتهاه.

وقد أعقبت تلك الخطوة خطوة ثانية أصبح فيها التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك حسب ترتيب المصحف، وتم ذلك على أيدي عدد من العلماء منهم: ابن ماجه (ت ٢٧٣هـ)، وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨هـ)، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، وأبو الشيخ بن حبان (ت ٣٦٩هـ)، والحاكم (ت ٤٠٥هـ)، وأبو بكر بن مردويه (ت ٤١٠هـ)، وغيرهم.

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وأتباعهم وليس فيها غير ذلك سوى تفسير ابن جرير الطبري فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض مع بيانه لأوجه الأعراب والقراءات واستنباط الأحكام الفقهية ونحو ذلك^(٢).

ثم أعقبت هذه الخطوة أيضاً خطوة ثالثة نحا فيها جماعة من المفسرين منحىً جديداً برز فيه حذف الأسانيد، والعناية بالأسلوب وحسن العبارة، وأحياناً إضافة رأي جديد، ومن هؤلاء: الزجاج (ت ٣١١هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ)، وأبو بكر النقاش (ت ٣٥١هـ)، وأبو الحسين بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، وغيرهم.

(١) الإسرائيليات لأبي شهبة (١٠٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢٤٢)، والتفسير والمفسرون (١/ ١٤١-١٤٢).

ثم جاءت الخطوة الرابعة وهي أوسع الخطأ وأفسحها وقد امتدت إلى يومنا هذا حيث اتسعت العلوم، وتم تدوينها، وترجمت كثير من كتب الفلاسفة، وتشعبت الخلافات الفقهية والعقدية، وظهر التعصب المذهبي وقامت الفرق الإسلامية تنشر مذاهبها، وغلب الجانب العقلي على الجانب النقلي.. كل هذا وغيره كان له أثره في التأليف في التفسير حيث اتجه كل مفسر إلى الاهتمام بالجانب الذي يميل إليه، وأصبح كل من برع في فن من الفنون يغلب على تفسيره فنه الذي برع فيه، ويحاول أن يطبع تفسير كتاب الله بطابع الفن الذي يغلب عليه.

فمثلا النحوي: نرى اهتمامه الأكبر ينصب على الإعراب وتعداد أوجهه المحتملة، كما ينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه، والمعاني اللغوية للألفاظ القرآنية وقد اشتهر بذلك: الواحدي علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، في تفسيره «البسيط»، وأبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)، في تفسيره «البحر المحيط».

ومن له اهتمام بالفقه: نراه يركز في تفسيره على آيات الأحكام وما فيها من فقه وتشريع كالقرطبي محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن».

وصاحب التاريخ: نراه يكثر من ذكر القصص وأخبار من سلف سواء كانت صحيحة أم باطلة، وذلك كالثعلبي أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)، في تفسيره «الكشف والبيان في تفسير القرآن». والخازن علي بن محمد الشيعي (ت ٧٤١هـ)، في تفسيره «لباب التأويل في معاني التنزيل».

وصاحب البدع: ليس له قصد إلا تأويل كلام الله عز وجل لتعزيز مذهبه الفاسد والترويج له، وممن فعل ذلك:

القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني المعتزلي (ت ٤١٥هـ)، في

تفسيره «تنزيه القرآن عن المطاعن».

والزمخشري محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، في تفسيره «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل».

والطبرسي الفضل بن الحسن المشهدي الشيعي (ت ٥٣٨هـ)، في تفسيره «مجمع البيان لعلوم القرآن».

وملا محسن الكاشي الامامي (ت ١٠٩٠هـ)، في تفسيره «الصادفي في تفسير القرآن الكريم».

وأصحاب التصوف: يلونون تفاسيرهم بأرائهم بأن عمدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب، واستخراج المعاني الاشارية من الآيات القرآنية بما يتفق ومشاربهم ويتناسب مع رياضتهم ومواجيدهم.

وهؤلاء من هو مخطئ متكلف كأبي عبد الرحمن السلمي محمد بن الحسين أحد علماء المتصوفة (ت ٤١٢هـ)، في كتابه «حقائق التفسير».

ومنهم من هو ضال غال ملحد كابن عربي محمد بن علي الأندلسي المعروف بـ «محي الدين بن عربي» (ت ٦٣٨هـ)، في التفسير المنسوب إليه، وفي كتابيه «فصوص الحكم»، و «الفتوحات المكية».

وصاحب العلوم العقلية: نراه يملأ تفسيره بأقوال الفلاسفة والحكماء وذكر شبههم، حتى يرى الناظر فيه العجب العجاب من عدم مطابقة ما يورده للآية وممن فعل ذلك :

الفخر الرازي محمد بن عمر التيمي البكري (ت ٦٠٦هـ)، في تفسيره «مفاتيح الغيب»^(١).

كما برز الاتجاه إلى تخصيص موضوع معين من موضوعات القرآن

(١) راجع في هذا الإتقان في علوم القرآن (٤/٤٤٢-٤٤٣)، والتفسير والمفسرون (١/١٤٥-

١٤٨)، ومباحث في علوم القرآن للقطان (٣٤١-٣٤٥).

والتأليف فيه. وممن كتب في ذلك :

مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ)، في الوجوه والنظائر، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت ٢١٠هـ)، في مجاز القرآن، وأبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت ٣٣٨هـ)، في الناسخ والمنسوخ، وإعراب القرآن.

وأبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ)، في إعجاز القرآن، وأبو الحسن الواحدي علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، في أسباب النزول.

والراغب الأصفهاني الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، في مفردات القرآن.

والكرماني محمود بن حمزة الشافعي (ت ٥٠٥هـ)، في متشابه القرآن.

وابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، في أقسام القرآن، والأمثال في القرآن.

كما كان لآيات الأحكام اهتمام خاص حيث أفرد لها كثير من المفسرين والفقهاء بالتأليف وجعلوها في كتب مستقلة.

وسأتناول في هذه الرسالة - إن شاء الله - توضيح هذا الجانب، والمراحل التي مر بها، ودارسة ما خلفه العلماء المعتبرون من كتب في هذا الشأن ومنهج كل منهم، واتبع ذلك بالكلام عن ما خلفته بعض الفرق التي عثرت على كتب لها في الأحكام. وأسأل الله العون والتوفيق.

